ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة التواصلية
ISSN 2437-0894- EISSN 6202-X537
HTTPS://WWW.ASJP.CERIST.DZ/EN/PRESENTATIONREVUE/294
المجلد:07/ العدد: 22 (2021) ص: 76/ 99

تجليات النزعة الصوفية في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

The manifestations of the mystical tendency in the poetry of Prince Abdul Qadir Al-Jazaery

د(ة).نصيرة عليوة

جامعة يحيى فارس- المدية (الجزائر)

manessa.omriadh@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2021/10/03

تاريخ القبول: 2021/10/17

الكلمات المفتاحية:

- ✓ تجلي
- ✓ التصوف
- ✓ الشعر الصوفي
- ✓ الأمير عبد القادر
- ✓ الرمز الصوفي

الملخص:

لم يكن الأمير عبد القادر رجل جهاد فحسب، بل كان رجل فكر وأدب وتصوف، إذ عُرف بأنه دائم البحث عن اليقين الذي يقربه من أهل العرفان، وهذا لتشبعه بالثقافة الصوفية، وارثاً إياها من بيئته، وقد وظف المعارف الكشفية والإشارات العرفانية التي ورثها في آثاره. كما أنه وجد الشعر أداة صادقة التعبير تعينه على تصوير الحقائق الصوفية التي تدركها قلوب الأتقياء حين تبحر في منابع فيض النور الإلهي. وجعل الموسيقى الشعرية المفعمة بالعشق الإلهي، وسيلة يعبر بها عن مكنوناته، من أجل تحقيق المبتغى وهو التقرب من الله، وقد ظهرت إشراقات هذه النزعة جلية في شعره من خلال توظيفه للمصطلحات والرموز الصوفية.

Article info

Received *2021/10/03*

Accepted *2021/10/17*

Keywords:

- ✓ *Manifestation*
- ✓ *mysticism*
- ✓ *mystical poetry*
- ✓ *Prince Abdul Qadir*
- ✓ *mystical symbol*

Abstract :

Prince Abdul Qadir was not only a man of jihad, but a man of thought, literature and mysticism. He was known to always search for certainty that would bring him closer to the people of mysticism. He also found poetry as an honest expression tool that helps him to portray the mystical truths that the hearts of the pious comprehendwhen hearts sail in the sources of divine light. The radiance of this tendency was evident in his poetry through his use of mystical terms and symbols.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1. مقدمة:

يعد الأمير عبد القادر الجزائري أول شاعر جزائري في العصر الحديث، كتب في التصوف شعرا ونثرا، فهو واحد من أولئك الذين شقوا طريقهم بالمجاهدة النفسية والجسدية، وكان التصوف بالنسبة إليه تجربة روحانية، وظاهرة وجدانية، الغاية منه الوصول إلى الحضرة الربانية، فنقل لنا من خلال قصائده الصوفية تجربته التي عاشها نتيجة لقائه الروحي بينه وبين الله تعالى استنادا إلى الخلوة الإلهية، كما أنه وجد الشعر أداة صادقة التعبير تعينه على تصوير الحقائق الصوفية التي تدركها قلوب الأتقياء حين تبحر في منابع فيض النور الإلهي. وجعل الموسيقى الشعرية المفعمة بالعشق الإلهي، المشبعة بألحان الحب الروحاني، وسيلة يعبر بها عن مكنوناته، من أجل تحقيق المبتغى وهو التقرب من الله تعالى، ودليله في طريقه هذا قلبه، لا عقله، كغيره من المتصوفة فالقلب عندهم أساس المعرفة والوصول إلى الحقيقة وبالتالي الوصول إلى الحق تعالى، لأنه عزّ وجل ينظر إلى القلوب، بحسب رأي الأمير عبد القادر، فإذا كان الجسد في أقدس بقعة على الأرض وهي مكة المكرمة والقلب منشغل عن الله تعالى في السوق أو العمل، فإن الله غير ناظر للجسد، حتى يتوجه بقلبه إليه بالنظر الخالص والرؤية الخالصة ليفيض عليه من نعيمه الرباني، وهذا هو أصل التصوف، وقد ظهرت إشراقات هذه النزعة الصوفية جلية في شعر الأمير عبد القادر من خلال توظيفه للمصطلحات والرموز الصوفية. فإلى أي مدى نجد كلّا من الرمز والمصطلح الصوفي حاضرا في ديوان الأمير عبد القادر؟

2. التصوف في الشعر:

1.2. مفهوم التصوف وعلاقته بالشعر:

إن حقيقة التصوف من منظور أهل العرفان عبارة عن تضحية وإيثار، فالعارف المتصوف يضحي بكل ملذات الدنيا وشهواتها ومتعتها، ويؤثر ما هو فانٍ على ما هو باقٍ، تضحية بالعاجل الدنيوي، وإيثاراً لكل ما هو مؤجل أخروي، ولا يكون ذلك إلا عن طريق جهاد النفس، ومحاربة هواها. فهذه الطريقة في السلوك مبدأها الزهد والتحلي بالفضائل، من أجل تزكية النفس بغية الوصول إلى أعلى درجات العبادة والحب الإلهي.

أما عن حد التصوف فقد تعددت تعريفاته، لدرجة أن البعض قد أحصاها وأوصلها إلى ألفي تعريف[1] كالشيخ ابن زروق[2]، ومنهم من جعلها ثمانمائة تعريف كالحافظ أبي نعيم[3] في كتابه حلية "الأولياء وطبقات الأصفياء"[4] تصب كلها في مجرى واحد وهو أن التصوف أوله مكابدة ومجاهدة للنفس، وآخره مشاهدة للحقائق، بعد زوال حجاب الوهم الذي

---

[1] الكتاني، نور الهدى، (2008)، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، بيروت، دار الكتب العلمية. ص8.

[2] هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزرّوق(846 899 - هـ)الفقيه المالكي. صاحب الشروحات المعتمدة عند المالكية، ومن أهم من اعتنى بجانب التربية والسلوك في الكتابات الإسلامية ..وتذكر العديد من المصادر أنّ الزروق قام بحركة تصحيحية لمسيرة التصوف التي كانت حصيلة سنوات من التعلم والسفر بين الحواضر العلمية في العالم الإسلامي والتي اعتبر العديد من المؤرخين أنها أظهرت التصوف كمنهج حياة متكامل وفق الكتاب والسنة

[3] هو أبو نُعيم الأصبهاني (336هـ -430 هـ) المؤرخ المسلم الرحالة أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران مواليد أصفهان وصاحب كتاب حلية الأولياء، وتاريخ اصبهان، ودلائل النبوة.

[4] الكتاني، نور الهدى، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ص8..

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يمنعنا عن ذلك. ومن بين تلك التعريفات نذكر ما قاله معروف الكرخي (ت200هـ) "التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق."[1] فالتصوف بالنسبة له هو معرفة جوهر الشيء وحقيقته وباطنه، وعدم الاكتفاء بظاهره، والتخلي عما تملكه الخلائق من أملاك دنيوية ومادية في سبيل الله تعالى. كما نذكر في هذا السياق تعريف ابن خلدون: "هو العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة."[2] فالتصوف إذن يقوم على مخالفة الجمهور في اللهث وراء اللذة، بل مغالبة شهوات النفس، والعزلة عن الخلق أثناء العبادة والتأمل.

كما عرّفه الأمير عبد القادر بقوله: "هو جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله، وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا شيء آخر في سبيل معرفة الله."[3] أي أن العارف في سبيل وصوله إلى الحقائق لابد له من محاربة نفسه، تلك الحقائق لا يشاهدها "ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد، في الزمان المتباعد، فإذا قدر لأحد مشارفة حماها، ومقاربة مرماها، ألقت عليه إكسيرا لا مادة له ولا مدة، ولا هو عين معتدة، فيحصل انقلاب عينه وجميع الأعيان في عينه، إلى عين هذه المعشوقة، التي هي غير مرموقة، المعلومة المجهولة، المغمودة المسلولة، الباطنة الظاهرة، المستورة، الجامعة للتضاد، بل وبجميع أنواع المنافاة والعناد، ولا يقدر أن يعبر عنها بعبارة، ولا يشير إليها بإشارة، أكثر من قوله: إني وصلتها وحصلتها بعد التعب والعنا، ومعاناة الضنا، وجدت هذه المعشوقة أنا"[4] ويقصد بها الحقيقة.

أما عن صلة التصوف بالشعر فإنهما يلتقيان في كونهما حقلان متقاربان في عالم الروح، الذي يتجاوز العالم الواقعي، يصدران عن مكنونات روحانية، ويتفقان في الأسلوب واللغة والصورة، "فهناك وشائج قربى تجمع بين التصوف والفن بشكل عام، وبينه وبين الشعر بشكل خاص، هذه الوشائج تتمثل في أن كليهما يحيل إلى العاطفة."[5] فالقاسم المشترك بينهما هو قاسم وجداني، حيث أن النص الصوفي والشعر كلاهما يتميز بصدق التجربة النابعة من المعاناة، والتجربة الشعرية والتجربة الصوفية كلاهما تجربة نفسية شعورية، تعبر عن مشاعر تخالج روح الشاعر والصوفي، هذان الأخيران يتجاوزان لغة العموم في التعبير إلى لغة الخصوص، وكلاهما ينفسان عن مشاعرهما بكلمات أساسها الرمزية.

والصوفي يدرك بنفس الأداة التي يدرك بها الشاعر وهي القلب، "إن المتصوفين والشعراء الكبار أمثال: رابعة العدوية، والحلاج وابن عربي وابن الفارض وغيرهم، كانوا يستعملون الشعر في التعبير عن معانيهم والكثير من جوانب تجربتهم الصوفية، فهي لغة الخصوص لا لغة العموم، لغة المجاز والرمز، لا لغة التصريح والوضوح، فما يعانيه الشاعر خلال عملية

---

[1] عودة، أمين يوسف، (دت)، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، الأردن، جدار للكتاب العالمي للنشر والتوزيع. ص12.

[2] رزوقي، عبد الله، (2016، 2017)، الصوفية ومنطلقاتها الفكرية والأدبية، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة. ص37.

[3] الجزائري، الأمير عبد القادر، (دت)، المواقف الروحية، والفيوضات السبوحية، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية. مج1، الموقف 71، ص141.

[4] المرجع نفسه، ص28.

[5] نصر، عاطف جودة، (1983)، الرمز الصوفي الشعري عند الصوفيين، دمشق، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.ص53.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تجسيد ما اختمر في ذهنه من تساؤلات وأفكار يشبه ما يقوم به الصوفي في مقاماته وأحواله."[1] فنجد ابن عربي مثلا قد مزج التصوف بالشعر، ويعتبر ديوانه "ترجمان الأشواق" إبداع في مجال الشعر، وابن الفارض الذي حول تجربته الصوفية إلى تجربة شعرية خالصة، هذا يعني أن أصحاب المسلك الصوفي عبّروا عن مشاعرهم وعن حقائقهم من خلال نمط تجاوز اللغة العادية، فهذه اللغة عاجزة بالنسبة لهم عن ترجمة معانيهم بدقة، هذا النمط يتجنب الوضوح، ويكتفي بالإيحاء والرمز، والغموض في الجوهر، هذا ما يكسب القصيدة عامة والقصيدة الصوفية جمالية. وإذا تأملنا جيدا في هذا الشعر نجده مزيجا بين الشعر الديني والغزل العذري المتصوف، فمنهم من تغزل بليلى وهند وغيرهما، وما هن إلا رمز للذات الإلهية، وكان ذلك مباحاً عند بعض الأئمة ورجال الدين.

وعليه فإن أهل المسلك الصوفي استعانوا بالشعر من أجل التعبير عن مكنوناتهم وعن مجاهدتهم، وعن شطحاتهم العرفانية، وهذا ما يجعل الشعر الصوفي نوع من أنواع الأدب وغرض من أغراض الشعر، شعر روحي متأصل في تراثنا العربي، عرفته المجتمعات الإسلامية على مر الأزمنة.

2.2. إرهاصات الشعر الصوفي: لجأ أهل المسلك الصوفي إلى الشعر باعتباره أفضل وسيلة للتعبير عن ما لا يمكن لعقلهم الإفصاح عنه، شأنه شأن النثر الصوفي أو أغزر، وقد كثر الشعراء الصوفيون العارفون، على مر العصور وفي كل أصقاع البلاد الإسلامية، وغايتهم واحدة وإربهم واحد، قالوا الشعر فأجادوا وأفاضوا وأغدقوا، وقد نبع ذلك من حسهم وبديهتهم، فخلفوا وراءهم تراثا شعريا صوفيا عظيما، يتسم بالرمز والخيال، والصور البديعة وجمال التشبيهات، ولطائف المجازات. و"كان ظهور الشعر الصوفي في أوائل القرن الثاني الهجري، على أيدي الحسن البصري وتلامذته من بعده، وأقدم تراث خلفه المتصوفة الأوائل من الشعراء، بداية من رابعة العدوية (ت135هـ) وسهل التستري (ت283هـ) ثم الحلاج والشبلي وأبو زيد البسماطي وغيرهم في مختلف العصور."[2] ويمكن تقسيم عصور الشعر الصوفي إلى المراحل الآتية:

ـ **المرحلة الأولى**: وهي مرحلة القرن الثاني هجري، تبدأ من عام 100 هـ إلى 200 هـ، وفيه بداية تكوين الشعر الصوفي، حيث أنه لم يكن سوى أبيات تحوي لمحات دالة على الصوفية، ومن أهم الأسماء التي برزت في هذه الفترة رابعة العدوية.[3]

ـ **المرحلة الثانية**: وهي مرحلة القرنين المواليين الثالث والرابع، وفيها بدأ الشعر الصوفي بالنهوض، والازدهار والتطور، وظهرت قصائد صوفية كاملة، ومن بين أسماء شعراء هذه المرحلة: أبو تراب عسكر التخشبي (ت245هـ) وأبو حمزة الخراساني، وسواهما.[4]

---

[1] بوسقطة، السعيد، (2008)، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، الجزائر، منشورات بونة للبحوث والدراسات.ص138.

[2] منصور، محمد، (1995)، الشعر والتصوف، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، الجزائر، دار الأمين للنشر والتوزيع. ص27

[3] ينظر: الخطيب، علي، (1404هـ)، اتجاهات الأدب الصوفي، بين الحلاج وابن عربي، القاهرة، دار المعارف. ص22.

[4] ينظر خفاجي، محمد عبد المنعم، (دت). الأدب في التراث الصوفي، القاهرة، دار غريب. ص54.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ـ **المرحلة الثالثة:** هي مرحلة القرنين الخامس والسادس، وفيها استمر الشعر الصوفي في التطور والازدهار، وفي هذه المرحلة أخذ الشعر الصوفي منحى جديد وهو القول في الحب الإلهي والحب النبوي، وقصائد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والاشتياق إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والأماكن المقدسة، والدعوة إلى الفضائل والابتعاد عن الرذائل، وفي هذه المرحلة بدأ ظهور الشعر الصوفي الفارسي، ومن الأسماء التي برزت نجد: معروف البلخي، والبستاني، والحصري ومهيار، وشهاب الدين السهروردي، والأمير عبد القادر ومحمد الأندلسي القرشي صاحب قصيدة "المتفرجة" والبرعي الذي تغنى بالحب الإلهي، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وتغزل بالمشعر الحرام.[1]

ـ **المرحلة الرابعة:** وتشمل القرن السابع الهجري بكامله، وفيها بلغ الشعر الصوفي أوج ازدهاره وذروة تطوره، وذلك مع شعراء أمثال ابن الفارض وجلال الدين الرومي، في الشعر الفارسي، وابن عربي والبوصيري، وعبد العزيز الدميري، وابن عطاء الله الإسكندري، ومجد الدين الوتري، وفي هذه المرحلة تعددت قصائد المدح النبوي، وانتشرت الدعوة إلى التنسك والورع والتقوى.[2]

ـ **المرحلة الخامسة:** وهي المرحلة الأخيرة من القرن الثامن الهجري وإلى غاية يومنا هذا، وفي هذه المرحلة نجد الشعراء الصوفية يقدمون رحلات صوفية وجدانية، يسلكها الشاعر العارف بمعراجه في سماء المحبة، وهو في حالة سكر وانتشاء، ومن أولئك الشعراء نجد الشعراني والنابلسي، ومحمود حسن إسماعيل في ديوانه "قاب قوسين".[3]

وعليه فقد جاءت هذه النزعة الصوفية وعبر هذه المراحل كرد فعل على حياة الترف والرفاهية والمجون والتلهف على الملذات والاندفاع نحوها، هذه الحياة التي غرق فيها الكثير، فجاء الشعراء المتصوفة ليحثوا من خلال قصائدهم على التخلي عن هذه الدنيا الفانية وتطليقها، والتفرغ لعبادة الله تعالى. والعمل للآخرة الخالدة.

3.2. أهم أعلام الصوفية: لا يتسع لنا المقام لذكر جميع أعلام الصوفية والشعر الصوفي، لذلك نحاول التطرق لأشهر الصوفية ونقتصر على أربعة منهم.

1.3.2. رابعة العدوية: أشهر النساء الزاهدات المتعبدات الصوفيات، هي كما وصفها عبد الرحمان بدوي: "إنها ذات الخدر الخاص، مستور بستر الإخلاص، المتقدة بنار العشق والاشتياق، المتحرقة إلى القرب والاحترام، الفانية في الوصال، المقبولة عند الرجال، كأنها مريم ثانية، صافية صفية، إنها رابعة العدوية رحمها الله."[4] هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية، نسبة إلى بني عدوة، ولدت عام 90 هـ في البصرة، حفظت كتاب الله في سن مبكرة، كانت شديدة الذكاء،

[1] ينظر: الخطيب، علي، اتجاهات الأدب الصوفي، بين الحلاج وابن عربي، ص23.

[2] ينظر خفاجي، محمد عبد المنعم، الأدب في التراث الصوفي، القاهرة، ص59.

[3] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[4] بدوي، عبد الرحمان، (1962)، دراسات إسلامية، شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، القاهرة، مصر، مكتبة النهضة الأدبية. ص142.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ويذهب البعض إلى أن رابعة هي أول من تكلم من الصوفية عن الحب الإلهي. حيث بلغت مرحلة الحب الإلهي حتى أنها تغيب عمن حولها، ولا تحس إلا بجلاله سبحانه وتعالى، ولا تنشغل إلا بذكره.[1] تقول في إحدى القصائد:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

تتحدث بقلبها إلى الله تعالى ولا تتوقف عن المناجاة فحبيب قلبها هو الله ومؤنسها هو الله، هي منشغلة عن أهل الأرض بعشق خالق السماوات والأرض. كما نجدها تقول في قصيدتها الشهيرة:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك وأغلقت قلبي على من عاداك

وقمت أناجيك يا من ترى خفايا القلوب ولسنا نراك

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له فلست أرى الكون حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك ولكن لك الحمد في ذا وذاك [2]

فمن خلال أشعارها في المحبة الإلهية تظهر دعوتها جلية للتقرب من الله تعالى وطريق حبه، توفيت رحمها الله عام 135هـ

2.3.2. محي الدين ابن عربي: شيخ الصوفية الأكبر بلا منازع، الفيلسوف الصوفي الأول، قمة التصوف الفلسفي، لغزارة علمه وعمق فهمه، مما جعله خالدا على مر الزمن، ومادة للبحث في كثير من الدراسات.[3] ولد هذا القطب عام 560 هـ، ببلاد الأندلس، وينحدر من قبيلة حاتم الطائي، عاش حياة حافلة، وكان يثير حفيظة خصومه بأفكاره وفلسفته ومذهبه ومواقفه، له أكثر من 400 مؤلف، أشهرها موسوعته الكبرى في التصوف المعنونة بـ"الفتوحات المكية" ولا يقل عنها أهمية كتب أخرى كـ"فصوص الحكم" و"التفسير الصوفي للقرآن" ومن دواوينه الشعرية ديوان "ترجمان الأشواق" الذي صدح فيه في سماء الأرواح وغرد فيه في عوالم النفوس. نظم فيه روائع الغزل الصوفي،[4] يقول في قصيدته كان لي قلب:

كان لي قلب فلما ارتحل بقي الجسم محل العلل

كان بدرا طالعا إذ أتى مغرب التوحيد ثم أفل

[1] ينظر: أبو كف، أحمد، (2002)، أعلام التصوف الإسلامي، القاهرة، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، ص215 وما بعدها.

[2] غريب، مأمون، (2000)، رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.ص85.

[3] ينظر: أبو كرم، أمين، (1997)، حقيقة العبادة عند محي الدين بن عربي، القاهرة، دار الأمين ص13.

[4] ينظر: أبو كف، أحمد، أعلام التصوف الإسلامي، ص176 وما بعدها.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

زاده شوقا إلى ربه صاحب الصعقة يوم الجبل
لم يزل يشكو الجوى والنوى ليلة الاثنين حتى اتصل
فدنا من حضرة لم تزل تهب الأرواح سر الأزل
قرع الأبواب لما دنا قيل من أنت فقال الحجل
قيل أهلا سعة مرحبا فتح الباب فلما دخل
خر في حضرته ساجدا وانمحى رسم البقا وانسجل[1]

قصائده في هذا الديوان جاءت أكثر نضجا واكتمالا، مليئة بالرموز والإيحاءات، تكلم فيه عن الحب فقال عبارته المشهورة: "الحب الحقيقي يستغرق حواس المحب وعقله، فلا يرى المحب حينئذ إلا محبوبه." والملاحظ في تصوف ابن عربي عدم قبوله لفكرة الحلول السائدة عند الصوفية، بالإضافة إلى مسألة الاتحاد، حيث يرى أن الاتحاد بين الخالق والمخلوق زعم غير حقيقي، حيث لا يمكن الاتحاد لا عن طريق المعنى ولا عن طريق الصورة.[2]

3.3.2. جلال الدين الرومي: شاعر وعالم صوفي فارسي الأصل، من أبرز أعلام التصوف الفلسفي في التاريخ الإسلامي وأكثرهم تأثيرا، تأثيره هذا صالح لكل زمان ومكان، وصفه البعض بأنه ذو رؤية تحمل رسالة عالمية، تخاطب كافة الحضارات، ولد الرومي سنة 1207م، بمدينة بلخ، وعاش جل حياته في منطقة قونيا، وفيها التقى شمس الدين التبريزي، شيخُه الذي أثر فيه وجعله يسلك النهج الصوفي، فكان لقاؤه به نقطة تحول في مسار حياته ولحظة إعادة ميلاد لفكره وسلوكه، إذ دخل على يديه في زمرة أرباب التصوف فبدأ نظم الشعر الصوفي، دخل الرومي تاريخ التصوف العالمي من أوسع أبوابه باعتباره أحد أهم المتصوفين ونشأت عن تراثه في تركيا طريقة صوفية عُرفت بـ"المولوية" واشتهرت بعده بطقوس الرقص الدائري حول النفس أسس الرومي "المذهب المثنوي" في الشعر الذي كان أبرز تجلياته ديوانه الشعري المعروف بـ"مثنوي معنوي" والموصوف بأنه أكبر مرجع تصوفي باللغة الفارسية، فقد كتب فيه مئات الآلاف من أبيات الشعر عن العشق الإلهي من منظور صوفي.

يقول جلال الدين الرومي في رباعياته: هذا الصباح، قطفت وروداً من البستان. خشيت أن يلمحني البستاني. سمعته يخاطبني بكل رقة" :ما الورود؟ سأمنحك البستان كله."هذا اليوم، يوم الضباب والمطر لا بد أن يجتمع الأصحاب. فالصاحب مصدر سعادة لصاحبه. مثل باقات الأزهار الذي تولد في الربيع.. قلت: "لا تقعد حزيناً بصحبة المعشوق لا تجالس سوى ذوي القلوب الحنونة والوديعة عندما تدخل البستان، لا تتجه صوب الأشواك. لا تجاور سوى الورود، وأزهار الياسمين والنسرين" وتوفي جلال الدين الرومي سنة1237م.[3]

[1] ابن عربي، محي الدين، (دت)، الديوان، القاهرة، منشورات مكتبة الرشيدي، ص 185.
[2] ينظر: ابن عربي، محي الدين، (دت)، الفتوحات المكية، بيروت، لبنان، دار صادر. ص648.
[3] ينظر: راغب، مصطفى، (1982)، جلال الدين الرومي، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر.ص12 وما بعدها.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

4.3.2. أبو مدين التلمساني: الشيخ الزاهد الفاضل العارف بالله أبو مدين شعيب الغوث، أبرز المتصوفة وأشهرهم في شمال إفريقيا والأندلس، قطب التصوف، المولود في ضواحي إشبيلية سنة 1115هـ، عاش حياة حافلة بالعلم والفكر، اكتسب خلالها المعارف العقلية والنقلية، مؤلفاته تعتبر مصدرا يستقي منه المريد مادته في مجال التصوف، كرس حياته للجد والاجتهاد والطاعة والإخلاص في عبادة الله تعالى، بعد أن نهل من زاد التصوف على شيخه أبي الحسن، قرّر أبو مدين التوجه إلى الشرق قصد أداء مناسك الحج، وهناك التقى بالعلامة عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية، وسمح له اللقاء بالحصول على أسرار طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، نظم القصائد في الحب الإلهي، وفي السكر الصوفي، وأشهر ما نظم: "النونية الخمرية" ولا يصل الصوفي إلى السكر إلى بعد أن يتذوق العشق الإلهي ويتمكن منه. ويرتقي به في المقامات، يقول فيها مثلا:

أدرها لنا صرفا ودع مزجها عنا ... فنحن أناس لا نرى المزج مذ كنا

وغن لنا فالوقت قد طاب باسمها ... لأنا إليها قد رحلنا بها عنا[1]

4.2. المصطلحات الصوفية: إن أصحاب هذا المسلك يستخدمون مفاهيم ومصطلحات تغيرت دلالتها من دلالة لغوية أصلية إلى دلالة اصطلاحية متواضع عليها، هذه المصطلحات لها بنية خاصة نجدها في كلام وأشعار أهل العرفان، والمصطلح الصوفي "لا يعرف عن طريق منطق العقل والنظر، بقدر ما يفهم بواسطة الذوق والكشف."[2] هؤلاء المتصوفة يستخدمون تلك الألفاظ والمصطلحات لستر معانيها الحقيقية عن العامة وعن من يعارض مسلكهم وتوجههم، وخوفا من ذيوع أسرارهم في غير أهلها، من هذه المصطلحات نجد: **الروح**: للإنسان قوتان تحكمه: الأولى هي الروح العلوي، وهي التي تشده للحقيقة المطلقة، والثانية هي الروح الحيواني أو النفس، وهذه تجذبه إلى أسفل، أي إلى عالم الزوال والروح العلوي هو الأصل والجوهر، لذا تتوق الروح إلى العودة إلى موطنها الأصلي، "وهكذا لما كان الروح العلوي من عالم الأنوار الإلهية، فإن الإنسان إذا استطاع أن يقطع صلته باشتراطات النفس الحيوانية والبدن، فإنه يتمكن من استعادة صلته بالعالم العلوي، وبالتالي يتمكن من الإلهام والكشف."[3]

ومن المصطلحات نجد: **القلب**: وهو الرابط بين الروح والنفس، وحينما يتصل القلب بالروح العلوي يحدث الإلهام الصوفي، وأما إذا اتصل بالنفس فيحدث الإثم، ويصبح محلا للشهوات تابعا لها، وتمنع عنه بذلك الرؤية الصوفية، والقلب عندهم مرآة العارف، يعرف ما يعجز العقل عن معرفته، لكونه حاسة متعالية. كما نجد لديهم مصطلح: **السر**: أو البصيرة وعين القلب، وهناك من ذكر فروقا لهذه المصطلحات، كالقشيري الذي قال: "المشاهدة للقلوب، المكاشفة للأسرار، والمعاينة للبصائر." ومن المصطلحات الصوفية نذكر: **السكر**: وهو الذهول والانصراف عن النفس، وقيل دهشة

---

[1] ينظر: العلاوي، محمد طاهر، (2004)، العالم الرباني سيدي بومدين شعيب، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر. ص14 وما بعدها.

[2] الشرقاوي، حسن، (1987)، معجم الألفاظ الصوفية، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. ص7.

[3] بلغراس، عبد الوهاب، (2010، 2011) الحدث التاريخي في اللحظة الصوفية من خلال تجربة الأمير عبد القادر، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، كلية 5.العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة وهران، ص80.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تلحق سر المحب عند مشاهدة جمال المحبوب فجأة[1]، والسكر هنا من الخمرة المعنوية لا الخمرة الحسية، كما أنهم ميزوا أيضا بين السكر والغيبة والغشية. ومصطلح **الصحو**: وهو عند الصوفية رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبة، وزوال إحساسه وعكسه السكر، ومعناهما قريب من معنى الحضور والغيبة، والفرق بين الحضور والصحو أن الصحو حادث، والحضور على دوام.[2] ومصطلح **الوقت**: وهو عند الصوفية: "حادث متوهم علق حصوله على حادث متحقق."[3] بالإضافة إلى مصطلح **المقام**: وهو استيفاء حقوق المراسم على التمام، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام أعلى ما لم يستوف أحكام ذلك المقام[4]، ونجد من المصطلحات: **الحال**: وهو متعلق بالقلب، يأتي من غير تعمد، من طرب أو حزن، أو بسط وقبض، أو أشواق وانزعاج، والأحوال تأتي من الوجود نفسه، والمقامات تحصل ببذل المجهود.[5] كما نجد مصطلحي **الفناء والبقاء**: وقد ورد شرحهما في الرسالة القشيرية: "**الفناء** سقوط الأوصاف الذميمة، و**البقاء** بروز الأوصاف الحميدة، فمن فني من أوصافه الذميمة، ظهرت أوصافه المحمودة، ومن غلبت عليه الصفات الذميمة استترت عنه الصفات الحميدة."[6] ومصطلح **المكاشفة**: وهو رؤية الأشياء لدلائل التوحيد، وهي شرط الحضور بين يدي الله تعالى.[7] كانت هذه بعض المصطلحات التي يرددها المتصوفة في منظومهم ومنثورهم، وسنذكر بحول الله مصطلحات أخرى وردت في شعر الأمير عبد القادر الجزائري.

4.2. التصوف في الشعر الجزائري:

لقد أثر المتصوفة في الأدب بشعرهم ونثرهم تأثيرا ملحوظا، بميولاتهم ومذاهبهم، واتجاهاتهم وألفاظهم ومصطلحاتهم، تلك الألفاظ الصوفية كونت لنا ثروة لغوية لا يستهان بها، وقد نجد أغلبها تحمل معانٍ وجدانية وروحية، تناسبت والإبداع الأدبي، لذا نجد من أقطاب الصوفية أقطاباً للأدب أيضاً، لا سيما الشعر الذي اتخذه أصحاب هذا المسلك وسيلة للتعبير عن مشاعرهم ومكنوناتهم، حيث لم يتخذوه غاية في حد ذاتها وإنما وسيلة، تصور تجاربهم الروحانية، والرمزية أهم سمة ميزت لغتهم الشعرية، والمتصوفة في الجزائر شأنهم شأن المتصوفة في أقطار البلاد الإسلامية، تجاوبوا مع هذا التيار، وعرفوه عن طريق الرحلات العلمية أو رحلات الحج، والنزوحات، ونسخ المخطوطات وإرسالها، كل هذه العوامل أتاحت لهم التقاء مشايخ سلكوا النهج الصوفي.[8]

---

[1] الزوبي، ممدوح، ، (2004)، معجم الصوفية، القاهرة، دار جيل للطباعة والنشر والتوزيع.ص211.

[2] ينظر: نصر، عاطف جودة، الرمز الصوفي الشعري عند الصوفيين، ص347.

[3] ينظر: خفاجي، محمد عبد المنعم، (دت). الأدب في التراث الصوفي، القاهرة، دار غريب. ص259.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] القشيري، أبو القاسم، (2001)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، بيروت. ص57.

[6] القشيري، أبو القاسم، الرساله القشيرية في علم التصوف، ص67.

[7] خفاجي، محمد عبد المنعم، الأدب في التراث الصوفي. ص261.

[8] ينظر: مرتاض، محمد، (2009)، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، الجزائر، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، ص8،9. ص8،9.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والشعر الصوفي الجزائري جزء لا يتجزأ من التراث الصوفي العربي، له أعلامه الذين حملوا لواءه وهم أشهر من نار على علم، "لقد عج القرن السابع بأسماء جزائرية، تعود أصلا إلى بيئات ثقافية إبان هذه الفترة، وما بعدها في كل من مليانة وبجاية وزواوة وتلمسان"[1] ومناطق أخرى غير هذه في الجزائر، ومن أسماء أعلام الشعر الصوفي في الجزائر نجد: أبا مدين شعيب الغوث، عبد الرحمان الثعالبي، وعبد الرحمان بوقبرين، والشعراني، وعفيف الدين التلمساني، والسنوسي وغيرهم الكثير...هؤلاء وغيرهم تركوا لنا تراثا صوفيا ضخما زاخرا بالمعاني النورانية والروحانية، فنظموا القصائد الصوفية الفصيحة والعامية، وهذا ما يبين دور الشعر في تمرير الرسالة الصوفية، بين الخاصة والعامة، فالتصوف في وقت مضى كان يطبع الحياة الثقافية والأدبية خاصة في العصور الأخيرة في الجزائر، ومرّد ذلك إلى كثرة الزوايا والطرق.

أما عن الشعر الصوفي الجزائري الحديث فقد نحى أصحابه منحى القدماء، في الحديث عن القضايا التي عرفت في الفكر الصوفي بوجه عام، وفي الأدب والشعر بوجه خاص، ومثال ذلك: الحديث عن النور الرباني، والخمرة الإلهية، ووحدة الوجود، والغزل الإلهي، وغير ذلك...ويقال أن الأمير عبد القادر الجزائري أول شاعر جزائري في العصر الحديث نظم الشعر الصوفي، وترك لنا أثرا لابأس به مقارنة بغيره من الشعراء الصوفية في عصره، أو من جاء بعده، "خاصة إذا علمنا أن الأمير عبد القادر سلك طريق المجاهدات الروحية، أي تجربة التصوف العلمية...وعليه يرجح بعض الدارسين أن الأمير كان أديباً أول الأمر، أما التصوف فكان آخر ما اتجه إليه، أي أن قصائده في التصوف كتبها في سنواته الأخيرة، بعد أن استقر به المقام في دمشق، ومال إلى الهدوء والاستقرار، فاستغرق في التأمل، ووجد في التصوف شعرا ونثرا ما يشبع نوازعه الدينية، مما جعله في نهاية حياته شاعر التصوف بلا منازع."[2].

3. الأمير عبد القادر الشاعر الصوفي:

1.3. مولد الأمير ونسبه:

هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد يرجع في نسبه إلى إدريس الأكبر بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد كانت أسرة الأمير عبد القادر تعتز بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف، ففي القرن الثامن هاجر إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المغرب، هارباً من بطش العباسيين، وأنشأ دولة الأدارسة وعاصمتها فاس، ودام حكمها حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس، انتقل أحد أجداده عبد القوي الأول في نهاية القرن الخامس عشر . بعد سقوطها عام (1492م) . واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف. أما جده مصطفى فقد أسس الزاوية القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، بعد أن زار مدينة بغداد عام (1791م).

[1] المرجع نفسه، ص15.

[2] عبوسي، عبد الوهاب، (2019)، ملامح الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، تمنراست، مجلد9، العدد5، ص457، 458.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

واشتهرت أسرته بالورع، وكانت قدوة للناس في الجهاد والعلم، وتوفي جده مصطفى بعين غزالة، قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا عام (1797م) عند عودته من الحج، ودفن في نفس المكان وما يزال قبره معروفاً حتى الآن. ولد والده محيي الدين بقرية القيطنة عام (1776م)، ودرس على يد أبيه مصطفى، وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، واشتهر والده بسداد الرأي، وغزارة العلم، وقاوم ظلم بايات الغرب الجزائري منذ عهد علي قارة الذي حكم من عام (1812م) إلى (1817م). وآخرهم حسن بن موسى الذي حكم من (1827م) حتى (1830م).

ولد الأمير عبد القادر في (25 سبتمبر 1807م) في قرية القيطنة، وأمه السيدة زهرة بنت عبد القادر ابن خدة، وهي تنحدر من بيت علم وتقوى، من أولاد سيدي عمر بن دوحة، تلقى دروسه الابتدائية في مسقط رأسه تحت إشراف والده؛ وختم القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة، وتعلم مبادئ شتى العلوم اللغوية والشرعية، ونال درجة الطالب، وكلف بتحفيظ القرآن للأطفال، وإلقاء الدروس والتفسير في الزاوية[1].

2.3. ثقافة الأمير ونضاله:

ومن أجل إتمام دراسته سافر عام (1821م) إلى مدينة أرزيو الساحلية؛ التي تقع شمال مدينة معسكر، على بعد حوالي سبعين كيلو متراً، وذلك على يد القاضي الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي؛ الذي كان مشهوراً بغزارة العلم وسعة الاطلاع، وبعدها رحل إلى مدينة وهران إلى مدرسة العالم الفقيه أحمد بن خوجة، صاحب رائعة در الأعيان في أخبار وهران، وتوسع في المعارف اللغوية والفقهية والنحو والبيان والفلسفة والمنطق وصقل ملكاته الأدبية والشعرية، واجتهد في حضور حلقات العلم لعلماء وهران، مثل الشيخ مصطفى الهاشمي والشيخ بن نقريد، وقضى عامين كاملين في هذه الرحلة العلمية، وعاد إلى مسقط رأسه وتزوج بابنة عمه لالة خيرة بنت أبي طالب عام (1823م) وأقام في القيطنة معلمًا.

وكانت له رحلات علمية للقرويين والزيتونة، وكانت البيئة التي عاش فيها بيئة إسلامية وتربوية إيمانية واجتماعية متماسكة، وفي ظلها تكونت شخصيته، وهي التي أثرت في تكوينه النفسي والجسماني والفكري والاجتماعي والسياسي، وهذا التكوين يعود إلى عوامل منها: العامل الوراثي والبيولوجي والعقلي للأمير. كذا البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأ في ظلها وعاش فيها. حيث سمع الأمير عن ذلك التصوف من والده الذي لا شك قد حُفر في ذاكرته، وهو محاربة والده لأصحاب الطرق الصوفية الشاذة.

فقد جاء في كتاب تحفة الزائر: أصل ابن الشريف من الكسانة قبيلة بوادي العبد قرب غريس، أخذ العلم في صغره عن سيدي محيي الدين في مدرسة القيطنة ثم رحل إلى المغرب الأقصى ولقي الشيخ العربي الدرقاوي، وسلك طريقته وقفل راجعاً إلى وطنه، وجاء إلى حضرة سيدي محيي الدين زائراً، وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعاً، فأدبه سيدي الجد بالسياط واستتابه." هذا القول ليس دليلاً فقط على منزلة والد الأمير عبد القادر ومكانته الاجتماعية والدينية، إنما هو دليل على الوقوف في وجه أصحاب الطرق المنحرفة، ومحاربة البدع ومحاربة الابتعاد عن الشرع والسنة

[1] ينظر: مراد، بركات محمد، (1990)، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، القاهرة، كلية التربية، جامعة عين شمس.ص8،9.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والإجماع، والأمير عبد القادر أيضاً أثناء حكمه وفي عهد دولته حارب أصحاب الطرق المنحرفة، ووقف في وجه نشر دعوتهم وفضح أمرها. فالطرق الصوفية في شمال إفريقيا أحد الروافد الثقافية والفكرية، وقد تعامل معها العلماء وفق المعايير العلمية القائمة على العلم والإنصاف في الأفراد والمناهج، لقد كان السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر من الشخصيات المهمة في التأثير على ابنه الأمير، وكان رجلاً مهاباً محترماً، ليس لكونه قادرياً كما تردده أقلام الدعاية فقط وإنما لكونه عالماً فقيهاً وحكيماً وشجاعًا، امتاز بالأخلاق الإسلامية، والصفات الحميدة، والنبل الكريم، وعلو منزلته العلمية، أمر طبيعي ظهور هذه الآثار الوراثية على أولاده، ومنهم الأمير عبد القادر، فقد برزت هذه الآثار على الأمير في سن مبكرة، من ذكاء ومواهب فكرية وسرعة بديهة وشجاعة ومهارة بفنون الفروسية، من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف، إلى جانب نفسٍ أبِيَّةٍ وإيمان قوي ومحبة وجدانية وعقلية لخالق هذا الكون.[1]

أما عن شخصية الأمير النضالية، وحين تعرضت الجزائر للاحتلال الفرنسي عام 1830، تقدم الجزائريون بطلب لوالده لقيادة المقاومة الشعبية، لكنه اعتذر وطلب منهم مبايعة ابنه عبد القادر لتولي القيادة، وبويع على الجهاد عام 1833 ثم إن الأمير لما بويع كان سنه لا يتعدى الـ24 سنة، وفي معركة "خنق النطاح "التي خاضها الأمير بقيادة أبيه، وبعدما لاحظ شجاعة ونباهة الأمير عرض والده على مجلس الشورى مبايعة عبد القادر وقد حظي بالقبول من الأغلبية، سارع عبد القادر إلى تشكيل حكومته ووضع أسس الدولة الجزائرية الحديثة، وجمع المتطوعين وكون جيشا قويا، وحقق من خلال المقاومة نجاحات أرغمت قائد الجيش الفرنسي في وهران على عقد اتفاق هدنة عام 1834.

وأقرت فرنسا من خلال الاتفاقية سلطته على منطقة الغرب الجزائري ومنطقة الشلف، لكن الاستعمار لم يلتزم ببنود المعاهدة وخرقها عدة مرات. ومن جديد عاد الطرفان ووقعا اتفاقية هدنة جديدة عام 1837 عرفت بـ "معاهدة التافنة"، التي تعترف بسيادته على الناحية الغربية والوسطى من الجزائر، ووجدت فرنسا في الاتفاقية فرصة لالتقاط الأنفاس لتواصل بعد ذلك القتال ضد قوات الأمير. كرر الفرنسيون خرق الهدنة، ونهجوا هذه المرة سياسة "الأرض المحروقة "باستعمال أساليب وحشية في قتل الأطفال والنساء والشيوخ وحرق المدن والقرى المساندة له. ولخص الجنرال الفرنسي المحتل تلك السياسة في تهديد موجه لرجال الأمير "لن تحرثوا الأرض، وإذا حرثتموها لن تزرعوها، وإذا زرعتموها لن تحصدوها"، وهي السياسة التي أدت إلى سقوط المدن والمراكز العسكرية، وأرغمت الأمير عبد القادر على شن حرب العصابات ما بين عامي 1844 و1847.

مع استمرار الضغط الفرنسي عليه لجأ إلى المغرب الأقصى أملا في دعم السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن، لكن ضغوط الفرنسيين وتهديدهم باحتلال المغرب حال دون ذلك، فاضطر الأمير إلى إعلان "الاستسلام" عام 1847 بشرط السماح بانتقاله إلى الإسكندرية أو عكا، وبدلا من ذلك نقل إلى فرنسا وسجن هناك. وهناك من قال إن الأمير "خطف من قبل الفرنسيين ولم يستسلم". لم يبق الأمير عبد القادر في السجن طويلا فقد قرر رئيس الجمهورية الفرنسية لويس

[1] ينظر: مراد، بركات محمد، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، ص28 وما بعدها.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

نابليون (الثالث) إطلاق سراحه وسمح له بالسفر إلى تركيا عام 1852، ومنها انتقل إلى سوريا واستقر بمدينة دمشق عام 1855، حيث درَّس في المسجد الأموي وقبل ذلك في عدة مدارس سورية.

توفي الأمير عبد القادر بدمشق عام 1883 ودفن بحي الصالحية بجوار الشيخ ابن عربي الذي تأثر به كثيرا، وكان له وجود خاص في حياته، وكانت وصية الأمير أن يدفن إلى جواره، وفي عام 1965 نقل جثمانه إلى الجزائر ودفن في المقبرة العليا. رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته.[1]

3.3. تصوف الأمير:

نشأ الأمير عبد القادر الجزائري في بيئة دينية صوفية وكان أبوه الشيخ محي الدين مرابطاً صوفيا وشيخا قادريا روحيا، أورث مبادئ الصوفية لابنه الأمير، فكان الأمير ومنذ صباه مولعاً بمطالعة كتب القوم رضي الله عنهم، ويقصد أصحاب المسلك الصوفي، حيث يقول: "كنت أثناء المطالعة أعثر على كلمات تصدر من سادات القوم وأكابرهم، يقف شعري، وتنقبض نفسي منها، مع إيماني بكلامهم، على مرادهم، لأني على يقين من آدابهم الكاملة، وأخلاقهم الفاضلة."[2] ومن ثم أصبح للأمير باع طويل في التصوف، فلم يقف عنده نظرا وقراءة فحسب بل تطبيقا وعملا، حتى أصبح ممن يتذوقون التصوف ويشتاقون إليه، وكانت رؤيته للتصوف على أساس أنه ظاهرة باطنية روحية وظاهرية جسدية، تطهر النفس والروح، والقلب والضمير، كما تطهر البدن والجوارح.

ويعتبر الأمير عبد القادر التصوف: "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله، وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله."[3] وتعريفه هذا يتوافق مع وقفته التاريخية، وفي جهاده ضد النفس والعدو، والمتصوفة بالنسبة له أولئك الذين عليهم أن "يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم حاضرين مع الله."[4] عبادتهم خالصة لوجه الله تعالى، لا تشوبها أغراض نفسية ولا نهفات شهوانية، وكان الأمير يسمي المتصوفة بالعارفين، أو أهل الله، تحدث عنهم مطولا في كتاب المواقف، وصحح بعض المفاهيم المغلوطة حولهم، التصقت بهم في عصور التخلف وسيادة الخرافات. "هم ليسوا هؤلاء الذين يأكلون النار، ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور، ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام...لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعبذة، ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم."[5]

والتوجه إلى الله في نظر الأمير "هو التوجه إليه بعد التحقق بمرتبتي الإسلام والإيمان، وعبادة الله بمرتبة الإحسان، طبقا للحديث النبوي الشريف، الذي يجعل درجات الإيمان ثلاث مستويات، هي الإسلام والإيمان والإحسان في ذلك

[1] ينظر: بوعزيز، يحي، (1983)، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، تونس، الدار العربية للكتاب. ص42 وما بعدها.
[2] الجزائري، الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، الموقف 11، ص58.
[3] الجزائري، الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، مج1، الموقف 71، ص141.
[4] المرجع نفسه، المواقف، مج1، الموقف 12، ص46.
[5] الجزائري، الأمير عبد القادر، المواقف الروحية، المجلد 2، الموقف 248، ص678.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الحديث المشهور الذي دار بين جبريل عليه السلام والرسول صلى الله عليه وسلم."[1] وقد دفعت الأمير إلى سلك هذا النهج عدة أسباب أهمها تربيته الدينية التي شب عليها، وانتماؤه إلى آل البيت النبوي، وبعد ذلك عزلته في سجن الأمبواز، وتركه الحياة السياسية والعسكرية بعد وضعه للسلاح، وكذلك نزعته الإنسانية التي تقوم على التعايش والتسامح الديني الذي عرف به الأمير أثناء وجوده في بلده أو في منفاه.

انتقل الأمير عبد القادر في تصوفه من مرحلة إلى مرحلة، أولى تلك المراحل ذهابه إلى المشرق مع والده، لأداء فريضة الحج، وسنحت له من خلال هذه الرحلة فرصة الالتقاء بالطرق الصوفية، وعلماء التصوف والأخذ عنهم، حيث أخذ الطريقة النقشبندية عن الإمام ضياء الدين النقبشندي في دمشق، والطريقة القادرية في بغداد عن نقيب الأشراف السيد محمود الكيلاني القادري، والمرحلة الثانية من مراحل تصوفه كانت مع حروب الأمير ومرابطته في ثغور الفرنسيين، اتسمت هذه المرحلة بالفتوة ورباطة الجأش، والاتصاف بأخلاق النبلاء، أما المرحلة الثالثة من مراحل تصوفه كانت بأسره، حيث أتاح له الأسر فرصة كبيرة للعبادة والخلوة والتأمل الصوفي والتفكير العميق، وكانت هذه مرحلة مهمة في تأسيسه الصوفي، حيث كانت إعدادا لمرحلته الأخيرة، أما المرحلة الرابعة والأخيرة فكانت خصبة بالتجربة الصوفية، حين استقر به المقام في دمشق، وامتازت هذه المرحلة بتعمقه الروحي وتعرفه على الحقائق الصوفية، وملازمة الرياضة القلبية، وترديد الأذكار والأوراد، والارتقاء في معراج الأسرار الإلهية.[2]

4. المصطلح الصوفي والرمز الصوفي في شعر الأمير عبد القادر:

1.4. المصطلح الصوفي في شعر الأمير:

يعد شعر الأمير عبد القادر الجزائري الصوفي شعراً تقليدياً لا يكاد يخرج عن المواضيع الصوفية، اتجه فيه إلى الحديث عن أبرز القضايا التي عرفت في الفكر الصوفي، ولم يكن الأمير سبّاقا إلى الغوص في مثل هذه الأحاديث، وإنما سبقه لها العديد من الشعراء. لكن يعود له الفضل والسبق في أنه أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف، وترك وراءه تراثا لا بأس به في التصوف، ومنهج بلوغ المعرفة عند الأمير من خلال الخطاب الشعري الصوفي "لا يقوم على الممارسة الحسية والاستدلال العقلي، وإنما ينهض على القلب وأسراره، والذوق وإدراكه، فهو يأخذ بمنهج الذوق المدعم بالعقل، أي العقل بمفهومه الأفلاطوني، القائم على التصور العاطفي، والرمز والإشارة في التعبير."[3] أي أن الصوفي يدرس المسائل العقلية بعد أن يكشفها ذوقه، ومن بين المسائل والقضايا الصوفية والمصطلحات الفلسفية التي وشح بها خطابه الشعري نجد:

1.1.4. وحدة الوجود: ويعني هذا المصطلح في المفهوم الصوفي أن الوجود هو في الأصل وجود واحد، أي أن هناك وجودا واحدا وهو الله تعالى، ويجب النظر إليه من خلال مخلوقاته التي خلقها على اختلاف أشكالها وألوانها

---

[1] السيد، فؤاد صالح، (1985)، الأمير عبد القادر الجزائري، متصوفا وشاعرا، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.ص57.

[2] المرجع نفسه، ص60، 61.

[3] سحواج، محمد، (2017)، المصطلح الصوفي العرفاني في شعر الأمير عبد القادر، من الكشف إلى الحقيقة، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، قسم الآداب والفلسفة، العدد 18، ص66.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ومادتها...وأول من ذكر هذا المصطلح في التصوف الإسلامي هو محي الدين ابن عربي، حيث يقول دائما سبحان من خلق الأشياء وهو عينها، فوجود المخلوقات عين وجود الخالق، ووجود الله تعالى هو الأصل وهو الوجود الحقيقي، أما وجود العالم ما هو إلا وجود وهمي ومجازي، وجود المخلوق ما هو إلا صورة عن وجود الخالق. ويؤمن الأمير حقيقة بهذه الفكرة، فهو يعتبر أن العالم هو ظل الله، وهو كما يقول ابن عربي: "الحق متنزه مشبه معا، فتنزيهه في وحدته الذاتية، ومخالفته للحوادث، وتشبيهه في تجليه بصورها."[1] وفي هذا يقول في قصيدة "من أكون":

أيا أنا من أكون إن لم أكن أنت ... ويا من تكون إن لم تكن أنا
ما بالكم قلتم غله واعبد ... فكثرتم لذاك طاشت عقولنا
إذا رفعت من بيننا العين والألف ... فقد رفع الستر المفرق بيننا
وذلك حين لا أنا لك عابد ... ولا أنت معبود فزال حجابنا[2]

وهذه معانٍ فلسفية نابعة من الحب والشوق، "الأصل فيها الانتقال من القول برؤية الله في كل شيء إلى القول بأن الله هو كل شيء."[3] كما تتكرر المعاني الفياضة في أشعار الأمير النابعة من المحبة الخالصة للخالق الواحد.

أنا الحب والمحبوب والحب جملة ... أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا

2.1.4. وحدة الشهود: مرحلة يصل إليها الصوفي، وهي المشاهدة بعد التجلي، مثل الفناء بعد السكر، "يعبر فيها صاحبها عن سكره وفنائه وعن رؤيته للجمال المطلق بالصفات الإلهية، والأعمال الإلهية، لا بصفاته وأعماله، فهو ينظر بين الناس بهذه الصفات والأعمال، لكنه يحتفظ لنفسه بالصلة الشخصية التي تربطه بالحق، ويشعر أنه متحد به."[4] وأول من ذكر هذا المصطلح هو ابن الفارض، يقوم على فناء المحب في محبوبه، واتحاده بالمحبوب الحقيقي، وقد وظف الأمير عبد القادر هذه الفكرة في قصيدته "تجلي المحبوب"[5] والتجلي نلمسه في تكرار "الرؤية" ومشتقاتها من أفعال، وكلها تفيد المشاهدة، وقد ذكر سعادته المطلقة وفرحته بعد تجلي المحبوب الحقيقي، وبعد زوال الحجاب بينهما، يقول فيها:

تجلى له المحبوب من حيث لا يرى ... فأعجب به أراه من حيث لا أرى
وغيبتي به فغاب رقيبنا ... وزال حجاب البين وانحسم المرى
فصرت أراه كل حين ولحظة ... وقد كان غائبا وقد كان حاضرا
فما عرف الخلاق إلا بجمعه ... لضدين من كل الوجوه تنافر[6]

---

[1] هدارة، محمد مصطفى، (1981)، النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث، مجلة فصول، مصر، المجلد 1، العدد4.ص184.
[2] الجزائري، الأمير عبد القادر، (2007)، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، الجزائر، منشورات ثالة. ص130.
[3] عبوسي، عبد الوهاب، ملامح الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، ص463.
[4] الزوبي، ممدوح، المعجم الصوفي، ص426.
[5] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري،ص121، 122.
[6] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وقد كان الأمير يصبو طول حياته إلى المشاهدة واللقاء، وقد وقع عليه الاختيار لتلك المشاهدة وهذا سر خصه الله به دون غيره، وقد ناله، فصار يكحل عينيه بالجمال الذي كان محجوبا عنه.

ووصلني فلا تناكر بعد ذا	وقربني فكان سمعا وباصرا
أسر إلي حيث لا بين بيننا	بسر حكى لطف النسيم إذا سرا
ولاطفني بقوله الحق معلنا	إني قد اخترت قد اصطفيت بلا أمترا
وباسطني يا ما ألذه قائلا	تمتع وكحل بالجمال نواظر
فلطالما قد كنت تصبو إلى اللقاء	وكان جمالي بالحجاب مسترا[1]

3.1.4. الحيرة الصوفية: أو ما يعرف بالشك، والشك من منظور الأمير ليس طريقا للإلحاد وإنما هو طريق للبحث عن الحقيقة الإلهية، وهذا الشك بالنسبة له هو حيرة توصله إلى حقيقة الإيمان، متأثرا في هذا بشيخه ابن عربي، والأمير مثل شيخيه يرى أن المتصوف شاعرا أو مفكرا، يبدأ من نقطة الشك، لأنه الطريق إلى المعرفة[2]، و"الباعث على الشك والحيرة لدى المتصوف هو عقله، إذ يراه هو سبب التردد، كما يراه قاصرا في المسائل الإيمانية، فالمسلك العقلي مسلك لا يوصل إلى الإيمان الذي محله القلب بالنسبة للصوفي."[3] يقول في هذا الصدد:

يا من غدا عابدا لفكره فقف	فأنت يا غافلا على شفا جرف
جعلت عقلك هاديا ونور هدى	أضلك العقل أيقن أنت في تلف
حكمت عقلك في الرب العظيم فما	تنفك تحكم في حكم ذي سرف
تقول ليس كذا وليس هو كذا	الحق في طرف وأنت في طرف
عليك بالشرع فالزم طريقته	فحيثما سار سر، وإن يقف فقف
إن قال ليس كمثلي شيء قل هو ذا	أو قال لي أعين، فقل بذا كلفي[4]

فالعقل هنا في رأيه يضلل الإنسان، ويوهمه بأشياء لا أساس لها من الصحة، واتباع الشريعة هو النهج السليم إلى اليقين بوجود الله تعالى، والطريق الصواب للوصول إليه، ففي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما يغني السائل عن معرفة الحق والوصول إليه. فهذه الحيرة هي عبارة عن منازلة تتولى قلوب العارفين، بين اليأس والطمع، في الوصول إلى مطلوبه ومقصوده، لا تطمعهم في الوصول فيرتجوا، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا، فعند ذلك يتحيرون."[5]

---

[1] المرجع نفسه، ص122.

[2] ينظر: عبوسي، عبد الوهاب، ملامح الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، ص458.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص85.

[5] الحسيني الحسيني الكسنزان، محمد بن عبد الكريم ، (2006)، موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، دمشق، دار المحبة.ص167.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ومن المصطلحات الصوفية في الخطاب الشعري الصوفي للأمير عبد القادر نجد **الحقيقة المحمدية** التي أشار إليها من خلال القطبية، "والحقيقة القطبية وجدت منذ الأزل وكان وجودها سابقا على وجود آدم وبقية الأنبياء، وكانت منبعا فياضا بالوجود وبالعلم."[1] وقد رمز الأمير للقطب بلفظ الواحد، في قوله:

تجمعت الأضداد فيّ وإنني أنا الواحد الكثير والنوع والجنس[2]

هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، وهو الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، عليه تدور أحوال الخلق.[3] كما نجد مصطلح **وحدة الأديان**: حيث يرى أن الأديان أصلها واحد وفروعها كثيرة، فالإسلام واليهودية والنصرانية كلها فروع لدين واحد، وهدف واحد وهو عبادة الله الواحد الأحد، يقول الأمير في قصيدة أنا مطلق:

أنا العبد المعبود في كل صورة فكنت أنا ربا وكنت أنا عبدا
فطورا تراني للكنائس مسرعا وفي وسطي الزنار أحكمته الشدا
أقول باسم الابن والأب قبله وبالروح روح القدس قصدا ولا كيدا
وطورا بمدارس اليهود مدرسا أقرار توراة وأبدي لهم رشدا
فما عبد العزيز غيري عابد ولا أظهر التثليث غيري ولا أبدا
ولا أورى نار الغرس غير موري وما قال بالاثنين إلا أنا لحدا
أنا عين كل شيء في الحسن والمعنى ولا شيء عيني فاحذر العكس الطردا[4]

2.4. الرمز الصوفي في شعر الأمير عبد القادر:

وظف أصحاب المسلك الصوفي الرمز كثيرا في كتاباتهم الشعرية أو النثرية، بغرض التعبير عما يخالجهم وما يدور في ذهنهم بطريقة غير مباشرة، ومن تلك الرموز والإشارات ابتكروا معجما صوفيا خاصا بهم وبرموزهم، يحمل خبايا اللغة الصوفية ويكشف دلالاتها، باعتبارها لغة رمزية، هذه اللغة نابعة من القلب صادرة إلى القلب، فتحدث أثرا كبيرا لا يحدثه الكلام الذي يخرج من اللسان ليصل إلى الآذان ولا يتجاوزها. سميت هذه اللغة عند الغرب باللغة الخفية والباطنية، والرمز في الأصل معنى باطن، مخزون تحت الكلام الظاهر، لا يفقهه إلا أهله، وقد استعمل الأمير عبد القادر الرموز والإيحاءات غير مصرح ببعض النواحي النفسية المستترة، التي لا تقوى اللغة العادية على إيصالها، لأن الرمز "أقدر على التعبير عن

[1] سحواج، محمد، المصطلح الصوفي العرفاني في شعر الأمير عبد القادر، من الكشف إلى الحقيقة، ص67.
[2] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص126.
[3] ينظر: سحواج، محمد، المصطلح الصوفي العرفاني في شعر الأمير عبد القادر، من الكشف إلى الحقيقة، ص67.
[4] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، 120.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

عمق التجربة الوجودية فإن وقف المتلقي عند الظاهر، ولم يجعل همة في إدراك الباطن، وقف دون مقصد البحث، لأن الرمز كلام يعطي ظاهره، ما لم يقصده فاعله."[1] ومن أبرز الرموز الصوفية في شعر الأمير عبد القادر نجد:

1.2.4. الرمز الغزلي (الغزل الإلهي): يلتزم الأمير عبد القادر كغيره من الشعراء الصوفية بالحديث عن الحب الإلهي، وعن جمال المحبوب الخالق، وألم العشق والشوق والانتظار، ولوم العذال، والخوف من الفراق بعد اللقاء، وكل هذه المضامين تدور في فلك صوفي، هو فلك الغزل الإلهي، وفيه تفيض مشاعر الشاعر نحو معشوقه الأبدي، وتتقد نيران وجده. ونجد الأمير عبد القادر يوظف رمز المرأة ويكررها، ويتخذها معراجا لوصف شوقه ووجده وهيامه، ليس بذاتها وإنما بالذات العلية، فحبهم لله عز وجل وعشقهم وشوقهم له وحده، فكانت المرأة قنطرة لإيصال تعبيره عن عشقه لمحبوبه وتغزله به، فمن الحب الإنساني إلى الحب الإلهي. وقد اختلفت أسماء النساء في شعره إلا أن المقصود هو واحد، وهو الله عز وجل. يقول الأمير:

يقولون لا تنظر سعاد ولا علوا ... وعد من الآثار واقصد لمن تهوى
فإنك مكلوم الفؤاد متيم ... أخو جنة بل منها دواؤك ذا أدوى
نظرت إليه والمليحة تحسبن ... نظرت إليها لا ومبسمه الأضوا[2]

وفي قصائده الغزلية يتحدث عن "وصال الحبيب ورؤيته، والمحبة والعشق، ووصف ليالي اللقاء، منتقلا إلى حديثه عن التوجه الكلي للحبيب، مستطردا إلى الحديث عن صبر المحبين، وأبدى الأمير موقفه من العشق الإلهي."[3] كقصيدة "مسكين لم يذق طعم الهوى" حيث نراه يتغزل بالمحبوب في رمزية طافحة، بعد لقياه وبعد أن كحل عيونه برؤية طلعته البهية، فيقول:

أوقات وصلكم عيد وأفراح ... يا من هم الروح لي والروح والراح
يا من إذا اكتحلت عيني برؤيتهم ... وحققت في محيا الحسن ترتاح
دبت حمياهم في كل جوهرة ... عقل ونفس وأعضاء وأرواح
فما نظرت إلى شيء بدا أبدا ... إلا وأحباب قلبي دونهم لاحوا
نظرت حسن الذي لا شيء يشبهه ... فما يروق لقلبي بعد ملاح[4]

2.2.4. الرمز الخمري (الخمرة الإلهية): لجأ أصحاب النهج الصوفي إلى رمز الخمرة لعجز اللغة العادية، عن حمل الشعور بنشوة الغياب في الذات الإلهية، "والسكر في لغة المتصوفة هو تلك الغيبة التي تعتري المتصوف في حالة الوجد."[5]

---

[1] الرهاني، رضوان صادق، (2007)، الخطاب الشعري الصوفي والتأويل، المغرب، منشورات زاوية الرباط.ص195.

[2] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص31.

[3] السيد، فؤاد صالح، الأمير عبد القادر الجزائري شاعرا متصوفا، ص232.

[4] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص114.

[5] الجرجاني، علي ابن محمد، (دت)،كتاب التعريفات القاهرة، ، دار الفضيلة.ص53.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

فالخمرة التي يقصدها هؤلاء ليس الخمرة المسكرة المصنوعة من العنب، والتي هي رجس من عمل الشيطان، وإنما هي خمر حلال منزهة من وصمة التحريم، والضرر، وقد تناولها الأمير في قصائده وتغنى بها كغيره من الصوفية، وهو يحاكي في خمرياته خمريات ابن الفارض وابن عربي، سكر الأمير بهذه الخمرة التي لم تعتصرها يد بشر، سكر من توهج الحب في قلبه، وحرقة الجوى، ولذة اللقاء والوصال، ومن القصائد التي وظف فيها الأمير رمز الخمرة قصيدة "تجلي المحبوب" حيث هام فيها ولها وعشقا بذكر معشوقه:

وقد شرب الحلاج كأس مدامة ... فكان الذي قد كان منه مسطرا
وإني شربت الكأس والكأس بعده ... وكأسا وكأسا شيا ما أنا حاضرا
ومازال يسقيني ومازلت قائلا ... له زدني ما ينفك قلبي مسعرا
وفي الحال حال السكر والمحو والفنا ... وصلت إلى لا أين حقا ولا ورا[1]

وهو هنا يشرب من الكأس التي شرب منها الحلاج، وكلما ازداد شربا كلما ازداد حبا وشغفا، وقد وظف الألفاظ الخمرية (شرب، كأس، سكر، مدامة، يسقي..) للدلالة على معانٍ عرفانية، نقلت الخطاب من عالم الحقيقة إلى عالم الرمز والإيحاء، ونجد رمز الخمرة والسكر في قصيدته "أستاذي الصوفي":

ويشرب كأسا صرفة من مدامة ... فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر
معتقة من قبل كسرى مصونة ... وما ضمها دن ولا نالها عصر
إذا زمزم الحادي بذكر صفاتها ... وصرح ما كنى ونادى نأى الصبر
وقال اسقني خمرا وقل هي الخمر ... ولا تسقني سرا وقل لي هي السر[2]

خمرته الصرفة ترمز إلى لذة الوصول، والتمتع بولوج الحضرة الإلهية، "فهي حالة مشاهدة عرفانية تعتمد على الإدراك الخيالي للوجود، ونظرا لازدواج التجربة العرفانية والفنية عند الأمير فإن هذا الخيال ليتحول إلى قوة رؤياوية مؤسسة للفعل المعرفي، وما كانت الخمرة إلا رمزا لذلك الفيض العرفاني الطافح."[3] ومن خلال تلك الألفاظ يتضح جيدا أن الخمرة التي يقصدها الأمير ليست خمرة عادية، إنما خمرة جعلها مصدر علم ومعرفة، ولا يكون العالم عالما بها إلا إذا تمرس في شربها، ومن فاته شربها فقد فاته الفوز ونال في الدنيا الخسران.

3.4. المدح الصوفي في شعر الأمير عبد القادر:

لجأ الأمير عبد القادر إلى المدح الصوفي في قصائده ونراه يتعمد الإكثار من ذلك في ديوانه، ومن أشهر ما تركه لنا الأمير في المدح الصوفي، قصيدة مدح فيها الشيخ "محمد الفاسي" شيخ الطريقة القادرية، "أخذ عنه في أثناء خلوته الصوفية بمكة، والتي استغرقت عامين، وأثنى على الله بما أولاه على يد سيده وشيخه الفاسي، وكان يعتبر ملاذه وعمدته

[1] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص122.
[2] المرجع نفسه، ص182.
[3] عبوسي، عبد الوهاب، ملامح الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، ص460.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وعدته، فقد تجدد عمر الأمير على يديه، واكتسب بفضله حياة روحية جديدة، حيث إن شيخه محيي النفوس، ويبدو أن الأمير قد ترقى في معارج روحية كثيرة بفضل هذا الأستاذ، فإن للأستاذ في السلوك الصوفي منزلة كبيرة في مساعدة مريده، على اجتياز الكثير من العقبات، وتخطي كثير من الصعاب، واكتساب كثير من المقامات والأحوال."[1] وقصيدته هي من أوائل القصائد التي مدحت شيوخ الطرق الصوفية في الجزائر والمغرب العربي ككل، هذه القصيدة من أطول قصائد الديوان، بلغ عدد أبياتها المائة وأحد عشر بيتا، سرد لنا فيها لقاءه مع شيخه الفاسي، في مكة المكرمة ومصاحبته له والأخذ عنه أسس الطريقة القادرية بعد أن أخذها عن والده في صغره، صور لنا فيها فتوحاته الربانية وضمنها حديثا عن الغزل الإلهي والخمرة الإلهية، وعنونها بـ"أستاذي الصوفي"

افتتح الأمير قصيدته بمطلع يصور فيه ما كان عليه حاله قبل أن يمن الله عليه بلقاء شيخه الفاسي

أ مسعود جاء السعد والخير واليسر ... وولت جيوش النحس ليس لها ذكر
ليالي صدود وانقطاع وجفوة ... وهجران سادات فلا ذكر الهجر
أسائل كل الخلق هل من مخبّر ... يحدثني عنكم فينعشني الخبر[2]

فهو هنا يتذكر أيامه الصعبة ولياليه الحالكة التي كان يقضيها قبل لقاء سعده (الفاسي) ينتظر فيها بزوغ فجره ومجيء فرجه، بعد انتظار طويل له، وانقطاع وجفوة وحيرة تلفها كثرة الأسئلة، عمن يأتيه بخبر اليقين الذي يخرجه من هذه الحيرة والقلق، إلى أن استدعاه الشيخ إلى مكة، فكان الفرج المنتظر، ولبى المريد طلب شيخه وذهب إليه دون تردد، لما له من عظيم الشأو والقدر، فكان بالنسبة له ملاذه، ومرجعه وملجأه، يقول:

إلى أن دعتني همة الشيخ من مدى ... بعيد ألا فادن فعندي لك الذخر
فشمرت عن ذيلي الإطار وطار بي ... جناح اشتياق ليس يخشى له كسر
وما بعدت عن ذا المحب تهامة ... ولم يثنه سهل هناك ولا وعر
إلى أن أنخنا بالبطاح ركابنا ... وحطت بها رحلي وتم لها البشر
بطاح بها البيت المعظم قبلة ... فلا فخر إلا فوقه ذلك الفخر[3]

ثم أخذ يعدد خصال الشيخ ومناقبه، فخصه بأوصاف حميدة، لسمو شأنه، وعلو مكانته، "فهذه المناقب التي اختص بها الله هذا الصوفي، تغنيك عن الاستشهاد بغيرها، فقد بلغت الكمال والتمام، فهي أشبه بروضة تساقطت عليها قطرات ماء، فتفتحت أزهارها، وتضوع عبيرها، عن رائحة المسك والكافور والعطر."[4]

محمد الفاسي له من محمد ... صفي الإله الحال والشيم الغر

[1] مراد، بركات محمد، الأمير عبد القادر الجزائري المجاهد الصوفي، ص35.
[2] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص182.
[3] المرجع نفسه، ص184، 185.
[4] بن السبع، عبد الرزاق، (2000)، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، الكويت، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين، ص131.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بفرض وتعصيب غدا أرثه له هو البدر بين الأوليا وهم الزهر
تضوع طيبا كل زهر بنشره فما المسك ما الكافور ما الند ما العطر [1]

كما وصفه بالكريم الحليم الصبور الزاهد، شجاع ورحيم، بشوش الوجه طلق المحيا، يبعث الراحة والاطمئنان والتفاؤل في النفوس، وكل هذه الفضائل الربانية تشكل المرتبة العالية التي وصلها الشيخ الفاسي.

هشوش بشوش يلقى بالرحب قاصدا وعن مثل حب المزن تلقاه يفتر
فلا غضب حاشا بأن يستفزه ولا حدة كلا ولا عنده ضر
لنا منه صدر ما تكدره الدلا ووجه طليق لا يزايله البشر [2]

وقد ركز الأمير في مدحه الصوفي على النواحي المعنوية الخُلقية، وتجاوز النواحي المادية الخَلقية، فلم يمدح شيوخه بأوصاف دنيوية فانية.

كما يمكننا أن نعرج بالحديث عن قصيدة المدح الصوفي التي خص بها شيخه محمد الشاذلي القسنطيني، شيخ الطريقة الشاذلية، بقصيدة ميمية، نظمها عند لقائه لأول مرة، وحدث ذلك اللقاء بفرنسا أثناء تواجد الأمير في سجن الأمبواز، "وقد أكد الأمير في مدحه للشيخ على ثلاثة أمور، هي كما يلي: جلاء الأحزان التي لازمت الشاعر في أسره، والمحبة المتبادلة بينهما ثانيا، ومنزلة الشاذلي من ابن عربي ثالثاً، إذ يعبر الأمير عن منزلة الشاذلي في عصره، أنها قريبة الشبه من منزلة محي الدين بن عربي، قطب العارفين، فمكان الشاذلي العلي، فلا يدعي هذه المكانة أحد ولا يزاحمه أحد لأن غيره جدير بهذه المكانة السامية."[3] يقول فيه:

أسمي قطب العارفين لك العلا متبوعا منه أجل معالم
أنت الذي في الفضل أصبح مفردا لعلاه ما من مدعٍ ومزاحم [4]

5.خاتمة:

من خلال هذا البحث رأينا كيف وضع البُعد الصوفي بصماته في تفاصيل قصائد الأمير عبد القادر التي سار فيها على نهج سابقيه من المتصوفة، وتوصلنا إلى ما يلي:

ـ يعد الأمير عبد القادر شاعرا متصوفا، يترسم في قصائده خطى كبار الشعراء المتصوفة أمثال شيخه ابن عربي، فنجده في الشعر الصوفي يصور عواطفه المتأججة ومشاعره الفياضة التي تسكن روحه الصوفية، والشوق والحنين الذي يغمر جوانحه للقاء الله تعالى.

[1] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص186.
[2] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص187.
[3] السيد، فؤاد صالح، الأمير عبد القادر الجزائري شاعرا متصوفا، ص240.
[4] الجزائري، الأمير عبد القادر، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، ص240.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ـ الشعر الصوفي عند الأمير عبد القادر هو وسيلة تعبير اتخذها لنقل مشاعره وما يخالجه من أحوال وأذواق، وتصوير تجاربه العرفانية، ومجاهداته النفسية، ومقاماته الروحانية الباطنية، لذا نجده محّملا بآثاره الصوفية ونفحاته وأفكاره، وكذا مذهبه ونظراته الفلسفية.

ـ إن التصوف عند الأمير عبد القادر هو علم وعمل وليس مجرد ممارسات أو طقوس، وقد كان لنا كالبرهان القاطع على جده واجتهاده وجهاده لنفسه ولأعدائه، وأثبت لنا مدى ارتباط ظاهره بباطنه، وإيمانه النظري المجرد بسلوكه العملي النبيل.

ـ أوجد الأمير عبد القادر كغيره من المتصوفة معجما خاصا به، فوظف في أشعاره مصطلحات خاصة، وأنتج لنا خطابا مشفرا يقوم على الرمزية والإيحاء، يفهمه أهل هذا المسلك دون غيرهم من المعارضين لهم، كما تهدف هذه المصطلحات والرموز للوصول إلى أسمى درجات الذوبان الروحي.

ـ يصف الأمير عبد القادر في شعره بعض اللحظات الصوفية التي تنقله من عالم الحس إلى عالم الروح، كلحظة الوجد والنشوة، هذه اللحظات مرتبطة بالتجلي الإلهي، والمعرفة الحقيقية، والفناء بعد التجلي والغياب بعد الحضور، ثم العودة من جديد إلى العالم الحسي ولكن بصورة مختلفة.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

6. قائمة المراجع:

1.ابن عربي، محي الدين، (دت)، الفتوحات المكية، بيروت، لبنان، دار صادر.

2.أبو كرم، أمين، (1997)، حقيقة العبادة عند محي الدين بن عربي، القاهرة، دار الأمين.

3.أبو كف، أحمد، (2002)، أعلام التصوف الإسلامي، القاهرة، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر.

4.بدوي، عبد الرحمان، (1962)، دراسات إسلامية، شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، القاهرة، مصر، مكتبة النهضة الأدبية.

5.بلغراس، عبد الوهاب، (2010، 2011) الحدث التاريخي في اللحظة الصوفية من خلال تجربة الأمير عبد القادر، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة وهران،

6.بن السبع، عبد الرزاق، (2000)، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، الكويت، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين.

7.بوسقطة، السعيد، (2008)، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، الجزائر، منشورات بونة للبحوث والدراسات.

8.بوعزيز، يحي، (1983)، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، تونس، الدار العربية للكتاب.

9.الجرجاني، علي ابن محمد، (دت)،كتاب التعريفات القاهرة، ، دار الفضيلة.

10.الجزائري، الأمير عبد القادر، (دت)، المواقف الروحية، والفيوضات السبوحية، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.

11.الجزائري،الأمير عبد القادر، (2007)، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، الجزائر، منشورات ثالة.

12.الحسيني الكسنزان، محمد بن عبد الكريم ، (2006)، موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، دمشق، دار المحبة.

13.الخطيب، علي، (دت)، اتجاهات الأدب الصوفي، بين الحلاج وابن عربي، القاهرة، دار المعارف.

14.خفاجي، محمد عبد المنعم، (دت). الأدب في التراث الصوفي، القاهرة، دار غريب.

15.راغب، مصطفى، (1982)، جلال الدين الرومي، بيروت، لبنان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر.

16.رزوقي، عبد الله، (2016، 2017)، الصوفية ومنطلقاتها الفكرية والأدبية، مذكرة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة.

17.الرهاني، رضوان صادق، (2007)، الخطاب الشعري الصوفي والتأويل، المغرب، منشورات زاوية الرباط.

18.الزوبي، ممدوح، (2004)، معجم الصوفية، القاهرة، دار جيل للطباعة والنشر والتوزيع.

19.سحواج، امحمد، (2017)، المصطلح الصوفي العرفاني في شعر الأمير عبد القادر، من الكشف إلى الحقيقة، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، قسم الآداب والفلسفة، العدد 18، من ص63 إلى ص70.

20.السيد، فؤاد صالح، (1985)، الأمير عبد القادر الجزائري، متصوفا وشاعرا، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

21.الشرقاوي، حسن، (1987)، معجم الألفاظ الصوفية، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

22.عبوسي، عبد الوهاب، (2019)، ملامح الخطاب الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، تمنراست، مجلد9، العدد5، من ص455 إلى ص468.

23.العلاوي، محمد طاهر، (2004)، العالم الرباني سيدي بومدين شعيب، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر.

24.عودة، أمين يوسف، (دت)، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، الأردن، جدار للكتاب العالمي للنشر والتوزيع.

25.غريب، مأمون، (2000)، رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

26.القشيري، أبو القاسم، (2001)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، بيروت.

27.الكتاني، نور الهدى، (2008)، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، بيروت، دار الكتب العلمية.

28.مراد، بركات محمد، (1990)، الأمير عبد القادر المجاهد الصوفي، القاهرة، كلية التربية، جامعة عين شمس.

29. مرتاض، محمد، (2009)، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، الجزائر، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية،

30.منصور، محمد، (1995)، الشعر والتصوف، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، الجزائر، دار الأمين للنشر والتوزيع.

31.نصر، عاطف جودة، (1983)، الرمز الصوفي الشعري عند الصوفيين، دمشق، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

32.هدارة، محمد مصطفى، (1981)، النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث، مجلة فصول، مصر، المجلد 1، العدد4.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)